سينا المباركة أرض الخير والنماء

مقدمة

الحمد لله الذي فضل بعض الناس على بعض، وبعض الأزمان على بعض، وبعض الأماكن على بعض، فأختار من بين بقاع الأرض أماكن مقدسة، تجاب فيها الدعوات، وتتنزل فيها الرحمات، وتزال فيها العثرات، وأشهد أن لا إله إلا الله الأول بلا ابتداء والأخر بلا انتهاء، وأشهد بان نبينا وعظيمنا وشفيعنا، سيدنا مُحَمَّد ﷺ خير خلق الله على الله، بلغ العلا بكماله كشف الدجى بجماله، عظمت جميع خصاله صلوا عليه وآله، وبعد؛؛

نعيش اليوم مع أرض الزيتون مع أرض النماء والبركة، مع الأرض المقدسة، مع جزء غال ونفيس من أرضنا المباركة، الأرض التي نادى المولى سبحانه منها موسى، وكلمه على جبلها، وبها كانت الرحلة المقدسة، وعلى أرض مرت الفتوحات، ولعل من أعظمها الفتح الإسلامي لمصر، حديثنا اليوم عن سينا الحبيبة أرض البركات والخيرات، أرض النماء والطهر والنبل والعفة.

أولا: حديث القرآن والسنة عن الأرض المباركة.

تحدث القرآن صراحة وكناية عن تلك البقعة المباركة في أكثر من موضع في كتاب الله قال تعالى: (وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ) (٢٠المؤمنون) وقوله سبحانه: (وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (١) وَطُورِ سِينِينَ (٢) وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (٣)) وصراحة وكناية في وصف رحلة موسى عليه السلام قال ﷻ: (فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٢٩) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَامُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٣٠)

والتين والزيتون، قسم ولله أن يقسم بما شاء، وفيه إشارات زمانية ومكانية، أما الإشارة المكانية فلدمشق، أرض التين، والقدس أرض الزيتون، وسينا أرض البركات والخيرات، ثم عطف بمكة، وقيل إن في الآيات محذوف تقديره، ورب التين والزيتون!

أما الإشارات الزمانية فهي لزمن موسى وعيسى والنبي المصطفى ﷺ، تكريم تعظيم للأرض، والزمان والمكان، والتين وهو أفضل الفواكه وأطيبها والزيتون من ثمار الجنة، ولها من الفوائد والبركات ما له، وطور سنين، والسنين مبالغة في الحسن والبركة، وكل جبل مثمر يقال له سنين!

وَهذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ يعني الآمن، وهو مكة حرسها الله تعالى لأنه الحرم الذي يأمن فيه الناس في الجاهلية والإسلام، وطور سيناء، الطور : هو الجبل الذي كلم عليه موسى – عليه السلام – ، لأنه محل قدم الأحباب وقت سماع الخطاب.

وقد احتفى الحق سبحانه بطور سيناء، وبجبلها الذى تجلى عليه لموسى، فخصها بشجرة مباركة، تنبت بالدهن وصبغ للأكلين!!

{وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ} [المؤمنون: ٢٠]

وهنا نقف مع تلك الشجرة عدة وقفات:

أولها: أن تلك الشجرة هي شجرة الزيتون، التي أقسم الله بها، وهي من ثمار الجنة، وقيل إن أصل تلك الشجرة المباركة طور سيناء، ومنها نقلت إلى ارجاء العالم أجمع!!

ثانيها: أن تلك الثمرة والشجرة من ثمار الجنة ولها من الفوائد التي لا تحصى ولا تعد حتى أن الفنان المسلم قد عبر عنها في مشغولاته الفنية وموضوعاته الزخرفية كرمزية ودلالة على ثمار الجنة.

ثالثها: الإعجاز الطبي في القرآن الكريم، فشجرة الزيتون من ضمن النعم التي أنعم الله بها على الإنسان إذ أنها من الأشجار الخشبية التي تعمر طويلا لمدد تزيد على مئات السنين فلا يأخذ أمرها جهدا من الإنسان إنما تثمر أثمارا مستمرة طبيعية . كما تتميز بأنها دائمة الخضرة جميلة المنظر . وتفيد الأبحاث العلمية أن الزيتون يعتبر مادة غذائية جيدة ففيه نسبة كبيرة من البروتين كما تتميز بوجود الأملاح الكلسية والحديدية والفسفورية وهي مواد هامة وأساسية في غذاء الإنسان . وعلاوة على ذلك فإن الزيتون يحتوى على فيتامين أو وفيتامين ب . ويستخرج

من الثمار زيت الزيتون الذي يحتوى على نسبة عالية من الدهون السائلة . وهذا الزيت يستعمل بكثرة في التغذية . وتضيف الأبحاث الطبية إلى زيت الزيتون فوائد عديدة فهو يفيد الجهاز الهضمي عامة والكبد خاصة . وهو يفضل كافة أنواع الدهون الأخرى نباتية أو حيوانية . إذ لا يسبب أمراضا للدورة الدموية أو الشرايين كغيره من الدهن . كما أنه ملطف للجلد إذ يجعله ناعما ومرنا . ولزيت الزيتون استعمالات أخرى كثيرة صناعية إذ يحضر منه بعض الصناعات ويدخل في تركيب أفضل وأحسن أنواع الصابون وغير ذلك من مختلف الصناعات الغذائية والصناعية

رابعها: طول عمر تلك الشجرة المباركة وتعهد الحق سبحانه برعايتها، وكأن الله يريد أن يوجه رسالة للدنيا بأسرها أن الذي أحيا تلك الشجرة المباركة وتعهدها بالرعاية، قادر على حماية الأرض دون تدخل من أحد لكن الله يمحص عن قلوبكم، ويدفع الحق بالباطل، فإن اشتد الحق ودفع الباطل فهو دليل على قوة الخير وانتشاره، وإن غلب الباطل الحق فهو دليل على التردي والتراجع في الأخلاق والسلوك والعبادة!! ولكن في نهاية الأمر لن يكون إلا ما أراد الله أن يكون، وإذا أراد الله تطهير الأرض بعث عبادا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا.

خامسها: أنه تعالى إنما شبه الإيمان بهذه الشجرة ،لأن هذه الشجرة في أكثر الأمور إنما تنبت في الأمكنة المطهرة ، فكذلك المعرفة لا تستقر في كل قلب ، بل في القلوب المطهرة.

سادسها : أن شجرة الزيتون يتولد من ثمرتها ذلك الدهن الذى هو في غاية الصفاء ، فكذلك قلب المؤمن يتولد منه الإيمان والمعرفة ، وهم أصفى الأنوار وأشرفها.

ثانيا: سينا في التاريخ القديم والإسلامي

سيناء أرض الفيروز أرض النماء، وكل جبل يحمل ثمارا حسنة يسمى سيناء، أو سنين فسيناء هي الأصل، وهي الأب لكل جبل حسن مبارك، سيناء الوادي المقدس طوى، جمعت في طياتها ثلاث رسالات، بثلاثة رسل، والعديد من الأنبياء، الرسالة الأولى كانت لموسى عليه السلام، راعي الغنم الذى تربي في بيت فرعون، ولما كان منه ما كان من خبر المصري الذي وكزه موسى

فقضى عليه، ثم فر بدينه ونفسه إلى أهل مدين في شعاب بلاد الشام ولعلها الأردن، واستقبله شعيب، وقال لا تخف نجوت من القوم الظالمين، ثم زوجه إحدى ابنتيه لما رأي فيه من الأمانة والعفة والقوة، فلما قضى الأجل وحن إلى وطنه وأرضه، وسار بجانب الطور، أتاه نداء السماء في بقعة من أطهر وأشرف بقاع الأرض.

يصف القرآن تلك الحادثة وصفا بليغا، يشعرك بعظمة المكان وجمال الزمان فيقول الحق وهو أصدق القائلين: (وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (٩) إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (١٠) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَامُوسَى (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (١٣) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (١٤) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (١٥)) (طه) من هنا بدأت رسالة موسى، عليه السلام من البقعة المباركة من شجرة الزيتون المباركة، أن يا موسى إني أنا ربك وفي آية إنني أنا الله، فاخلع نعليك تأدبا مع ربك، وكرامة للمكان المبارك، إنك بأطهر بقاع الأرض وأشرفها، وأنا أخترتك، وفي قراءة وإنا اخترناك، لحمل الرسالة، وللذهاب إلى فرعون وجنده وحزبه، فأعلم انه لا إله إلا أنا فاعبدني حق عبادتي، وأقم الصلاة، بشقيها المعنوي والمادي، فلا دعاء ولا تقرب ولا وسيلة إلا لي!

ولم يتوقف جبل الطور على حد تبليغ رسالة المولى ﷻ لموسى وحسب، بل لما اراد موسى أن ينظر إلى مولاه، أخذ يتبتل على جبل الطور، ويقول رب أرني أنظر إليك، أنا عبدك وحبيبك ورسولك، أتمنى نظرة ولو لحظه، فلما ألح موسى في الدعاء والتضرع والتبتل في البقعة المباركة كان الجواب انظر إلى هذا الجبل المبارك إن استقر مكانه فسوف تراني!! لكن الله نور كما أخبر المعصوم، سبحانه نور السماوات والأرض لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار لا يحيطه الزمان ولا المكان وهو سبحانه قد احاط بكل شيء علما.

وقد صور القرآن هذا المشهد البليغ قال تعالى(وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ)

(١٤٣ الأعراف)

والخلاصة- إن موسى لما نال فضيلة التكليم بلا واسطة فسمع من عالم الغيب ما لم يسمع من قبل تاقت نفسه أن يمنحه الرب شرف رؤيته فطلب ذلك منه وهو يعلم أنه ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته التي منها كلامه، ولكن الله تبارك وتعالى قال له: «لَنْ تَرانِي» ولكى يخفف عليه ألم الرد أراه بعينه من تجليه للجبل ما فهم منه أن المانع من جهته لا من جانب الفيض الإلهي، حينئذ نزه الله وسبحه وتاب إليه من هذا الطلب، فبشره بأنه اصطفاه على الناس برسالته وبكلامه وأمره أن يأخذ ما أعطاه ويكون من الشاكرين.

وعلى أرض سينا الحبيبة كانت رحلة المسيح عليه السلام، وباب دخول الخليل إبراهيم، ورحلة نبي الله يوسف عليه السلام، فهي مهد الحضارات ورمز الصمود، والحجرة التي تحطم عليها آمال كل محتل وغاشم، وبوابة الفتح الإسلامي العظيم.

ثالثا: سينا قلب العروبة ونبض الأمة الإسلامية.

كما قلنا إن سيناء هي قلب العروبة، وهي بوابة مصر الشرقية، وملتقى القارتين آسيا وإفريقيا، لها من العبقرية والتفرد ما جعل المسلمون الاوائل، يعرفون لها قدرها ويجعلون بها حامية وأربطة لحمايتها وحراستها وصيانتها، لعلمهم بخطورتها وأهميتها.

فقد كانت العريش وتل الفرما، من أولى الحصون التي قابلها عمرو في طريق فتحه لمصر، وجعل عليها حامية مشددة لتأمين طريق الحج، وتأمين طريق المقدسات، وصار من العصر المملوكي يطلق على حاكم مصر خادم الحرمين الشريفين، وحاكم المقدسين، إشارة إلى بيت المقدس في فلسطين والبيت الحرام في مكة المكرمة حفظها الله!

وقد كانت العريش الصخرة التي تدك عليها أعناق الطامعين، ففي عصر الفاطميين لما تكالب الغرب وبعض المنشقين من الداخل وتمت الخديعة بين الصالح رزيك وبين الفرنجة كانت العريش وسيناء على موعد مع رد هذا العدوان وهزموا شر هزيمة، وكتب بن المهذب يصف بسالتها **وبسالة أهلها. ويمدح ملك الأيوبيين فقال:**

وإذا شككت بأنها أوطانهم ... قدماً فسل عن حارث الجولان (تل الحارة الكائن في الجولان

الحالية)

أورمُت أن تتلو محاسن ذكرهم ... فاسند روايتها إلى حسان

ما زلزلت أرض العدا، بل ذاك ما ... بقلوب أهليها من الخفقان

وأقول إن حصونهم سجدت لما ... أوتيت من ملك ومن سلطان

ولقد بعثت إلى الفرنج كتائباً ... كالأسد حين تصول في خفّان

لبسوا الدروع، ولم نخل مِنْ قبلهم ... أن البحار تحل في غُدران (موضع صعب كثير الحجارة والوحل الذي يبقي في النهر بعد نضوب الماء وهو دلالة علي بسالتهم)

عجلت في تل العَجُول قراهم ... وهم لك الضيفان (الضيوف) بالذِّيفان (سم زعاف)

وثللت (هدمت وكسرت) في يوم العريش عروشهم ... بشبا ضراب صادق وطعان

ألجأتهم للبحر لما أن جرى ... منه ومن دمهم معاً بحران

ولقد أتى الأسطول حين غزا بما ... لم يأت في حين من الأحيان

وفي سنة ٦١٩ هـ وما بعدها ٦٢٩ هـ ينتصر أهل العريش وأهل سيناء على الصليبين نصرا مؤزرا.

وقبيل عين جالوت كانت رحلة الناصر حيث هبت رياح الشرق نحو مصر من غزة رمز العزة إلى العريش، إلى الأسد الجسور المظفر قطز تطلب النصر والمدد، وكان النصر من مصر، والطريق إلى الشرق يبدأ من سيناء المباركة، من حيث ناجى موسى ربه!

وقد بنى فيها السلطان سليمان العثماني قلعة عام (١٥٦٠ م)، وكانت قائمة، حتى الحرب العالمية الأولى، ولم يبقَ منها سوى أطلال. وفى (١٨ من فبراير ١٨٩٩ م) استولى عليها نابليون، وفى (١٧ من نوفمبر ١٨٩٩ م) استعادها العثمانيون، واستولى عليها الحلفاء في (٢٠ من ديسمبر ١٩١٦ م)، وفيها عقد اتفاقية العريش في (٢٧ من شعبان ١٢١٤ هـ = ٢٤ من يناير ١٨٠٠ م)، بين جيش نابليون والعثمانيين؛ للجلاء عن مصر، دون شروط.

أخيرا: كلمة في فضل مصر وفضل أهل سيناء.

قال عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: أهل مصر أكرم الأعاجم كلها، وأسمحهم

يداً، وأفضلهم عنصراً، وأقربهم رحماً بالعرب عامة، وبقريش خاصة.

وقال أيضا: لما خلق الله آدم، مثّل له الدنيا: شرقها وغربها وسهلها وجبلها وأنهارها وبحارها وعامرها وخرابها، ومن يسكنها من الأمم، ومن يملكها من الملوك؛ فلما رأى مصر، رآها أرضاً سهلة ذات نهر جارٍ، مادته من الجنة تنحدر فيه البركة، ورأى جبلاً من جبالها مكسواً نوراً لا يخلو من نظر الرب عز وجل إليه بالرحمة، في سفحه أشجار مثمرة، فروعها في الجنة تسقى بماء الرحمة، فدعا آدم في النيل بالبركة، ودعا في أرض مصر بالرحمة والبر والتقوى، وبارك على نيلها وجبلها سبع مرات؛ قال: «يا أيها الجبل المرحوم، سفحك جنة، وتربتك مسكة، تدفن فيها عرائس الجنة، أرض حافظة مطبقة رحيمة، لا خلتك يا مصر بركة، ولا زال بك حفظة، ولا زال منك ملك وعز، يا أرض مصر، فيك الخبايا والكنوز، ولك البر والثروة، سال نهرك عسلاً، كثر الله رزقك، ودر ضرعك، وزكا نباتك، وعظمت بركتك وخصبت، ولا زال فيك يا مصر خير ما لم تتجبري وتتكبري أو تخوني؛ فإذا فعلت ذلك، عداك شر ثم يغور خيرك» فكان عليه السلام أول من دعا لها بالرحمة والخصب والرأفة والبركة.

وقال عبد الله بن عباس: دعا نوح عليه السلام لابنه بيصر بن حام- فقال: اللهم إنه قد أجاب دعوتي، فبارك فيه وفي ذريته، وأسكنه الأرض الطيبة المباركة التي هي أمّ البلاد. (يقصد مصر)

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: لما قسم نوح عليه السلام الأرض بين ولده، جعل لحامٍ مصر وسواحلها والغرب وشاطئ النيل، فلما قدم بيصر ابن حام وبلغ العريش، قال: «اللهم إن كانت هذه الأرض التي وعدتنا على لسان نبيك نوح وجعلتها لنا منزلاً، فاصرف عنا وبائها، وطيب لنا ثراها، واجمع ماءها ، وأنبت كلاءها، وبارك لنا فيها، وتمم لنا وعدك؛ إنك على كل شيء قدير، وإنك لا تخلف الميعاد» وقال كعب الأحبار: لولا رغبتي في بيت المقدس لما سكنت إلا مصر؛ فقيل له: ولم؟ قال: لأنها معافاة من الفتن، ومن أراد بها سوءاً كبه الله على وجهه، وهو بلد مبارك لأهله فيه.

وروى ابن يونس عنه قال: من أراد أن ينظر إلى شبه الجنة فلينظر إلى مصر إذا زخرفت.

نسأل الله أن يحفظ بلادنا وأن يبارك في أرض الفيروز ويجنبها كل مكروه وسوء.

جمع وترتيب الفقير لربه.

د محمد سالم الصعيدي الأزهري الشافعي

الأستاذ المساعد بالأزهر الأنور.